القاهرة تستولي على بغداد

محاولاتها وآثارها

كانت بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري معركة دول مختلفة وأجناس متباينة ومذاهب متعددة متعادية وسياسات متناقضة ، فالعباسيون وخليفتهم عبد الله القائم في سبيل إحياء عزهم ، والبويهيون وملكهم ابو نصر الرحيم في امر مريج وسياسة مضطربة ، والعرب وامراؤهم الكبار دبيس الاسدي ومهارش العقيلي وأمير خفاجه وغيرهم اولو سلطة ومرة عظيمتين في العراق ، واللاجقة وملكهم طغرلبك في قصده الى بغداد والجند من اتراك وفرس وعرب في شغب مستطير مستمر ، والفتن المذهبيّة السنية والشيعية بين اهل بغداد حاملة اوزارها عظيم اوارها ، والناس من هذه البلايا والرزايا في ويل عظيم وعلى شفا هلاك متوقع وغلاء متكرر

وصلت الموجة السلجوقية الى بغداد واستحوذ عليها طغرلبك وتمهدت الطريقة السنية ببغداد وتضاءلت الشيعية وهي مذهب البويهيين المطرودين من بغداد، واستقر الخليفة عبدالله القائم بعد اضطرابه

كان من امراء الاتراك في زمن الملك الرحيم « ابو الحارث ارسلان عبد الله البساسيري » مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة وكان الخليفة القائم يقدّمه على جميع الاتراك وقلده الامور بأسرها وخطب له على منابر العراق وخوزستان فعظم امره وهابته الملوك، وكان وزير القائم رئيس الرؤساء علي بن الحسين المعروف بابن المسلمة فوقع بينه وبين البساسيري شرّ فهرب البساسيري من بغداد وظهر للخليفة القائم تشيّعه وانهُ عازم على قصد بغداد ونهب دار الخلافة بالجانب الشرقي منها والقبض عليه ، فاستنهض الخليفة ابا طالب محمد بن ميكائيل طغرلبك وكان بازي من ايران واستعانه على البساسيري ورغبهُ في المجيء الى بغداد ، وهذا سبب استيلاء طغرلبك على بغداد سنة ٤٤٧ هـ [٢] وقد قدمنا ذكره والاشارة اليهِ

لما سمع البساسيري بانتحاء طغرلبك هرب الى الرحبة [٣] وكاتب صاحب مصر المستنصر بالله معد بن الظاهر لاعزاز دين الله العلوي الفاطمي « ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ » فأمده بالاموال

---

(١) الونيات ١٥ : ٦٥ » وتاريخ السيوطي ص ٤٢٨ (٢) الفخري ص ٢١٥ والسيوطي ص ٤٢٨

(٣) هي رحبة مالك بن طوق وهي بين الرقة وطاقة على الفرات انشئت في عهد المأمون

والعدد وحينئذ نهد الى بغداد بجيش من الاتراك وغيرهم ، اما طغرلبك فانه ثار عليه اخوه ابراهيم حاكم بلاد الجبل المعروفة بالعراق العجمي وخطب لخليفة مصر في همذان واصفهان وغيرها وقطع خطبة القائم العباسي ولي اخيه طغرلبك ، وكان ارسلان البساسيري هو الذي كاتب طغرل المذكور وحسن له الخلاف عليه واطمعه في الانتصاب منفسه اذا قهره ودحره ، وبانصراف طغرلبك لحرب اخيه بقيت بغداد في يد وزيره عميد الملك [1] ابي نصر محمد بن منصور ، وكانت هذه الحال فرصة للبساسيري ، فانتهى بجيشه الى الانبار وزحف منها الى بغداد تحت الرايات البيض الفاطمية وملك الجانب الغربي منها ، ثم عقد جسراً وعبر الى الجانب الشرقي ونزل بازاهر وهو بستان جميل عظيم [2] وحارب جيش الخليفة ودخل بغداد ، وبدخوله ابتدأ استيلاء القاهرة على بغداد وانفتح باب في السياسة لم يكن احد يجرأ على فتحه قبل البساسيري [3] ، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ قال ابن الطقطقي في البساسيري وعن بغداد « تغلب البساسيري على بغداد ونهبها وقتل من بها وأخرج الخليفة فحبسه بقلعة الحديثة وكانت فتنة البساسيري فتنة عظيمة » ثم قال « ثم ظفر بابن المسلمة رئيس الرؤساء فقتل به ، فمن جملة ما فعل به انه حبسه ثم اخرجه مقيداً وعليه جبة صوف وطرطور من لبد احمر وفي رقبته مخنقة فيها جلود مقطعة شبيهة بالتعاويذ واركب حماراً وطيف به في المحال ووراءه من يضربه بجلد وينادي عليه ، ورئيس الرؤساء يقرأ « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » وشهره في بغداد ، فلما اجتاز بالكرخ نثر عليه اهل الكرخ المداسات الخلق وبصقوا في وجهه ووقف به بازاء دار الخلافة من الجانب الغربي ثم أعيد وقد نصبت له خشبة في باب خراسان (من ابواب مدينة المنصور) فانزل عن الحمار وخيط عليه جلد ثور مسلوخ في الحال وجعلت قرونه على رأسه ، وعلق بكلاب في حلقه واستبقي في الخشبة حيًّا الى ان مات من يومه [4] » اهـ . وقال ابن خلكان « واجتمع قريش (بن بدران العقيلي) مع ارسلان البساسيري المقدم ذكره على نهب دار الخلافة ثم ان الامام القائم بامر الله جرى على سجيته في الحلم وكتب الى السلطان طغرلبك المقدم ذكره في المحمديين ليرضى عنه . . . » وكان ارسلان هذا يلقب بالقنارة ويقتل بها [5] وهي معروفة عندنا اليوم بالعراق يستعملها القصابون فيعلقون بها الذبائح لها أسنة مزبلة محددة معقوفة ، وقوله « وعلق بكلاب في حلقه » يوضح صورة التعذيب بها . كان دخول البساسيري فرحة للشيعة ومحرراً لهم من ذل الاضطهاد والاستهتار ومنهم اهل الكرخ وهم الذين نثروا التاسومات (الاحذية) على رئيس الرؤساء — كما تقدم —

---

(١) ترجمته في الوفيات « ٢ : ١٨٤ » (٢) ارض هذا البستان تشمل البلاط الفيصلي الحالي ببغداد وما حوله الى حد واسع (٣) خلاصة الذهب المسبوك ص ١٦٥ والفخري ص ٢١٢ والسيوطي ٤٢٨ والوفيات « ١ : ٦٥ » و « ٢ : ٢٢٣ » (٤) الفخري (ص ٢١٥ — ٧) (٥) الحوادث الجامعة ص الثالثة السابعة ص ١٢٧ و ١٥٠ من نسختنا الخطية

الخطبة للفاطميين ببغداد

ابتدأت الخطبة للمستنصر الفاطمي في مساجد بغداد من سنة «٤٥٠» الى سنة «٤٥١» والجوامع المشهورة إذ ذاك : جامع المنصور بالجانب الغربي ببغداد ويسمى « جامع المدينة » ايضاً اي مدينة المنصور المدورة ، وجامع الخليفة المكتفي ويدعى «جامع القصر» قصر التاج ويعرف اليوم بجامع سوق الغزل ، وجامع المهدي بن المنصور ويسمى «جامع الرصافة» ايضاً بالجانب الشرقي من بغداد ولا اثر له اليوم ولا للرصافة فانها اصبحت بساتين ومزارع وبنى فيها على العهد القيصلي « جامعة آل البيت » ثم عطلت، وزيد في الأذان « حي على خير العمل »[1] على حسب مقتضى المذهب الجعفري ، وقد أجبرت القاهرة بغداد على تحمل هذه البدعة في الاذان كما أجبر المغرب البلاد المصرية عليها عند استيلاء جوهر الصقلي فيها [2] ، وامر ارسلان ببناء مشهد الامامين علي الهادي والحسن العسكري في بلدة سامرا ، قال كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي الشافعي في حوادث سنة « ٦٤٠ » من كتابه « وفيها وقع حريق في مشهد سرّ من رأى فأتى على ضريحي علي الهادي والحسن العسكري — ع — فتقدم الخليفة المستنصر[3] بالله بعمارة المشهد المقدس والضريحين الشريفين واعادتهما الى اجمل حالاتهما، وكان الضريحان مما امر بعمله ارسلان البساسيري فجعل النار سبباً لأزالة اسمه ! ! ! [4] »

فلقد طغرل بك بأخيه ابراهيم فقتله ثم كاتب متولي «عانة» مهارش بن المجلي في رد الخليفة الى بغداد ورجع هو اليها ليخرج البساسيري منها فلما قرب عسكره منها هرب البساسيري الى واسط فلحقته الجيش وحاربوه فأسروه ثم قتلوه وبعثوا برأسه الى بغداد فطيف به في اسواقها وشوارعها ثم علق قبالة « باب النوبي »[5] وهو الباب الكبير من ابواب دار الخلافة بالجانب الشرقي وعنده مجلس الحاجب الاكبر للخليفة العباسي ، وكان مقتل البساسيري سنة «٤٥١» هـ فكانت مدّة استيلاء القاهرة على بغداد والخطبة فيها للمستنصر الفاطمي سنة واحدة كما مرّ ثم عاد الخليفة القائم الى بغداد وانتعشت الخلافة العباسية بعد تلك الكبوة الشديدة [6] واخذ الخليفة يتتبع مخالفيه في المذهب فيضطهدهم ويشرّد بهم

كتاب القائم لمحو سنة الفاطميين وغيرهم

كتب القائم الى نقيب الطالبيين بالبصرة السيد يحيى كتاباً صورته « شرّف الله مقام الجانب الكريم السيد النقيب الشريف النسيب الحسيني بقية البيت النبوي محب خليفة الامة ، عضد ده

---

(١) تاريخ السيوطي ص ٤٢٨ (٢) الوفيات « ١ : ١٢٩ » (٣) هذا المستنصر العباسي لا الفاطمي والفاطمي اقدم منه بكثير (٤) الحوادث ص ٤٩ من النسخة المخطوطة (٥) بضم النون قال ابو عبيدة «النوبة والنوبة بوزن الكوفة فيها الجرة وهي حجارة سود ومنه قيل للاسود نوبي ونوبي » (٦) الوفيات « ١ : ٦٥ » والسيوطي ٤٢٨ — ٩

بنصرة السنة صالح الاولياء ، علم هداة العباد لا زال عرفانهُ منيعاً وهداه متبعاً ، ما داخل الكلام كيت وكيت وقلت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) نحن نجلك عن الوصايا إلاَّ ما يتبرك بذكره ، ونسرك إذا اشتملت على سدَّد ، فأهلك أهلك ، راقب الله ورسوله جدك — ص — في ما أنت عنهُ من أمورهم مسؤول وارفق بهم فهم أولاد أمك وأبيك حيدرة والبتول ، وكف يدك من عفت أنهُ استطال بشرفه قدَّ الى العباد يداً واعلم بان الشريف والمشروف سواء في الاسلام إلاَّ من اقتدى ، وأن الاعمال محفوظة ثم معروضة بين يدي الله ، فقدم في اليوم ما تفرح به غداً ، وأزل البدع التي ينسب اليها أهل الغلو في ولائهم والعلو في ما يوجب الطعن على آبائهم لانهُ يعلم أن السلف الصالح — رض — كانوا منزهين عما يدعيه خلف السوء من افتراق ذات بينهم ويتعرض منهم اقوام لما يجرهم الى مصارع حتفهم ، فالشيعة عثرات لا تقال من اقوال لا تقال ، فسدَّ هذا الباب سدَّ لبيب واعمل في حسم موادهم عمل أريب ، وقم بنهيهم والسيف في يدك قيام خطيب ، وخوفهم من قوارعك مواقع كل سهم مصيب ، فانا دعا « محيٍّ على خير العمل » خير من الكتاب والسنة والاجماع فانظم في نادي قريتك عليها عقود الاجتماع ، ومن افترى الى افتراك أو مال الى ازيديته في زيادة مقال وادعى في الائمة الماضين ما لم يدعوه أو افتعل في طرق الامامية بعض ما ابتدعوه ، او كذب في قول على صادقهم أو تكلم بما أراد على لسان ناطقهم ، وقال : إنه يلقى منهم سرًّا حُشُوًّا على الامة ببلاغة ، وزادهم عن لذة مساغه ، أو روى عن يوم السقيفة والجمل غير ما ورد اخبارا ، أو تمثل بقول عبد شمس : قد أوقدت لبني هاشم نارا ، أو تمسك من عقائد الباطن بظاهر أو قال : إن الذات القائلة بالمعنى تختلف في مظاهر ، أو تعلق له بأئمة الستر وجاء [1] ، أو انتظر مقيماً رضوى عنده عسل وماء [2] ، أو ربط على السرداب فرسه لمن يقود الخيل يقدمها اللواء ، وتلفت بوجهه يظن عليًّا — ك — في الغمام ، أو تعلقت من عقال العقل في اشتراط العصمة في الامام ، فعرفهم جيداً أن هذا من فساد أذهانهم وسوء عقائد أديانهم ، فانهم عدلوا في التقرب بأهل هذا البيت الشريف عن مطلوبهم ، وان قال قائل : إنهم طلبوا ، فقل لهم (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا) وانظر في امور أنسابهم نظراً لا يدع مجالاً للريب ، ولا يستطيع معهُ أحد أن يدخل فيهم بغير نسب ، ولا يخرج منهم بغير سبب ، وساو المتصرفين في اموالهم في كل حساب واحفظ لهم كل حسب وأنت أولى من أحسن لمن طعن في أسانيد الحديث الشريف او تأول فيهِ على غير مراد قائله — ص — تأديباً [3] ، وأرهم ما يوصلهم الى الله والى رسوله طريقاً قريباً ،

(١) نوبختية هنا وهم من الامامية الاثني عشرية الذين يقولون بغياب الامام الثاني عشر محمد بن الحسن وسيظهر ويملأ الارض عدلا وهداية (٢) اشارة الى الشيعة الكيسانية المختارية التي قيل انها ادعت غياب محمد ابن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية في رضوى وانه سيعود (٣) يريد أنك أحق بتأديب هؤلاء المتشيعين تأديباً حسناً كاملا

وخلّ من علمت أنهُ قد مال عن الحق وأمال الى طريق الباطل فرقاً وطوى صدره على الغل وغلب من أجله على ما سبق من علم الله من تقديم من يقدم حقاً ، وجاروا — وقد اوضحت لهم طريقته المثلى طرقاً ، واردعهم إن تعرضوا في القدح لنضال نصال وامنعهم فان فرقهم كلها — وان كثرت — خابطة في ظلام ضلال ، وقدّم تقوى الله في كل عقد وحل ، واعمل بالشريعة الشريفة فانها السبب الموصول الحبل ، والله يرفعك في الزلفى الى اشرف محل ويعدّ لك رواق عز اذا لمع له البرق خدّه خجل ، أو مدّ الغمام معهُ سرادقاته اضمحل (١)

وبعد دخول هولاكو بغداد سنة « ٦٥٦ » هـ واستيلائه على العراق صارت القاهرة ملجأ الاسلام الأعظم وملاذ العلماء والأمراء المضطهدين ومأمن الخائفين الهاربين فكان لها ومن صريح حقوقها أن تستولي على بغداد التي استقلت بنها الخلافة العباسيّة تلك الخلافة الدينيّة الرسميّة ، وأصبحت تراثاً لأبناء العباسة ولا سيّما من التجأ منهم الى مصر التي كان يحكمها الأتراك مماليك الأيوبيّة وكان ذلك العهد عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس « ٦٥٩ — ٦٧٦ » هـ وكان على شيء هائل عظيم من القوة والسيطرة والعظمة واعداد الجنود والعتاد ، فالتجأ اليه « أبو القاسم أحمد بن محمد الظاهر بأمر الله العباسي » هرباً من سيوف التتر وكان معتقلاً ببغداد — على عادة الخلفاء في أقاربهم — فركب الظاهر للقائه ومعه القضاة وبقية أرباب الدولة فاستقبله بسيره القاهرة ثم أثبت نسبه على يد قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ثم بويع بالخلافة وذلك سنة « ٦٥٩ » هـ ونقش اسمه على السكة (٢) وخطب له ولقب بلقب اخيه المنصور بن الظاهر وهو « المستنصر بالله » وتم امره وتثبت استخلافه الشوري

ازداد طمع القاهرة في بغداد بهذا الخليفة العباسي وارث الخلافة العباسيّة وعزم الخليفة او اعزموه على التوجه الى العراق واتفق مع عزمه عزم صاحب الموصل الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ وأخيه علاء الدين بن بدر الدين صاحب سنجار والمغول اللائذين بالملك الظاهر من غدر التتار ، فجهز السلطان الخليفة وابني صاحب الموصل وغرم عليه وعليهم « مليون دينار » و « ٦٦٠ » الف درهم فنهد الخليفة بعسكره الى العراق ففتح الحديثة وهيت منه وكادت القاهرة تستولي على بغداد ولكن عسكر التتار أدركهم فصافّتهم فقتل من جيش القاهرة جماعة كبيرة وذُهِبَ بالخليفة المستنصر بين سمع الأرض وبصرها ، قيل قُتِل وهو الظاهر ، وقيل : أضمرته البلاد . وذلك في ثالث المحرم من سنة « ٦٦٠ » هـ وكان المقاتل له من

(١) صبح الاخبار (ص ٧١ — ٢ — ٣) والنبذ المصان

(٢) وجد احد العمال في ٥ مارس سنة ١٩٣٢ بارض دار من دور القاهرة قدرين ملوءتين من هذه النقود منها « ١٥٧ » قطعة ذهبية ، وقد قرأنا قطعة منها فوجدنا ما صورته « لا اله الا الله محمد رسول الله الذي ارسله بالهدى » وعلى الوجه التالي السلطان الملك الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس قسيم أمير المؤمنين » ضربت بمكوكة بعد سنة « ٦٥٩ هـ »

التتار « قرابغا » نائب هولاكو ببغداد [1] ولم تهيء الاحداث للقاهرة الاستيلاء على بغداد هذه المرّة

كان العراقيون قد سمعوا بتجديد الخلافة العباسيّة ومنهم من علم بمهاجمة طليعة لعسكر التتار ، فهبوت أفئدتهم الى القاهرة وركنت نفوسهم اليها ولا سيّما الناقمين على التتار ، وانفتح للقاهرة طريق شرعي وسبب تأري للاستيلاء على بغداد ورجعها الى خلفاء العباسيين ظاهراً وسلطنة المماليك حقيقة ، وأحسّ التتار بهذا الشعور في العراقيين وذلك العزم والطوية من المصريين فطفقوا يؤاخذون الناس على الظنة ويعاقبون بالفتنة ويقتلون بالشبهة ويسرفون في العقوبة باضعف الأدلة ، ففي سنة « ٦٧٧ » هـ أرسل السلطان « أباقا بن هولاكو » إزعاج والي العراق « علاء الدين عطا ملك الجويني » الى الأردو (المعسكر) مقر سلطنته لاستنطاقه عمّا نسب اليه من مكاتبة سلطان مصر الملك المنصور قلاوون الألفي في اطماعه في العراق والانتقاض على التتر وقبض على شرف الدين علي بن أميراك كاتب الانشاء ببغداد وطوّق بطوق من حديد وأشخص من الوالي وقبض على حمزه التكريتي التاجر وضوّق وارسج معها إلى الأردو ، وكان سبب هذه التهمة أن رجلاً من أهل بغداد يعرف بنجم الدين بن حسين ويلقب بالكيبانية اتصل بخدمة شحنة بغداد « تارقيا » انتري واتخذه لنفسه هو وابن بغا الشرابدار جاسوسين على والي العراق علاء الدين الجويني : فاتفق احمد بن بغا الشرابدار ونجم الدين الكيبانية على ان نسبا أكابر اهل بغداد الى مكاتبة سلطان مصر قلاوون المذكور باتفاق علاء الدين معهم وتحدث الكيبانية بذلك عند الامراء والحكام فأحضروا والي العراق وصاحب الديوان علاء الدين المذكور وجماعة من الاكابر الذين نسبهم الى المكاتبة — وقد ذكرنا منهم شرف الدين علي بن أميراك والتاجر حمزه التكريتي — واستعاد الامراء كلام الكيبانية ، فقال اشياء كثيرة ، فطولب بالبرهان على صحتها ، فلم يقدر على ذلك ، فلما شدّد عليه وضوّيق قال : إني كاذب في كل ما قلته والذي يعنني على الكلام نصرة الدين بن ارغش واخوه وولده ، فأحضروا وسئلوا عن ذلك ، فاعترفوا به وقالوا : إن تتارقيا الشحنة وضع القائل على ما قاله فأمروا بحبس الجميع ، وأحضر أحمد بن بغا الشرابدار ، وسئل عن الحال فاعترف بها ، فسلم الى صاحب الديوان علاء الدين فأمر بحبسه فحبس اياماً ثم عملت له حجلة وسمّر عليها وجعل على رأسه مسخرة كان ببغداد يعرف بالموصلي يصفعهُ بنعل ويروّحهُ بها ثم يسول عليه والناس يجرّون الحجلة بالحبال في الاسواق والدروب في جانبي بغداد ، وكانوا يحبون صاحب الديوان ،

(١) مختصر ابن الساعي لرجل من اهل القرن الثامن للهجرة ص ١٣٩ ومثله ما في ص ٤٨٩ من السيوطي وص ٤٩٢ من مختصر الدول وص ٨٥ من الاعلام باعلام بيت الله الحرام وص ١٨٣ من القرماني وص ١٢٧ ج ٢ من دول الاسلام

فأخذ يسب الصاحب ويبسط لسانه فيه ، فنفذ اليه من قال له : إن الصاحب قد عنا عنك وامر بتخليصك من الحديد على ان يقطع لسانك فان آثرت ذلك فاخرج لسانك لنقطعهُ ، فأخرجهُ فوضعوهُ فيهِ مسلَّه قنعهُ من الكلام هذا الشكل ، وما زالوا يعذبونهُ بجر الخجلة واضطرابها الى آخر النهار ، ثم قطع رأسهُ ووضع مكانه رأس معز بلحيته وطيف بهِ في بغداد واحرق العوام جثته ورفع رأسه على خشبة وطيف ايضاً بهِ ، ثم ان نصرة الدين بن أرغش المذكور احضر بدوياً واعطاه كتباً ملصقة وأشار اليهِ ان يقول هذه سلمها الىّ صاحب الديوان علاء الدين ، فلما قال ذلك أخذ وحبس ، أما الكيباية فقال : إن الامير فخر الدين مفدي بن تشتمر كان ايضاً ، من جملة الجماعة الذين كاتبوا سلطان مصر فأحضر وسئل عن ذلك فانكر ، فوكل بهِ ، ثم قال الكيباية : ان العدل جمال الدين احمد بن عصية هو كان يكتب عن مفدي ، فاحضر وسئل فانكر فوكل بهِ ، ثم إن الصاحب عرف صدق العدل جمال الدين وبراءة ساحته فافرج عنه وخلع عليهِ وقدم له مالاً ولم يزل الكيباية والبدوي في السجن الى ان اشخص علاء الدين الى أردو السلطان اباقا بن هولاكو فاخذهُ صحبته ، وهناك استنطقوا الجميع عن هذه التهمة فظهر كذب المدعين وبراءة ساحة الصاحب ، فأمر أباقا خان بقتل الكيباية وأنفذ يديهِ الى بغداد ورأسه الى بلاد الاناضول ونادوا في الاسواق «هذا جزاء من يقدم على سيدنا شمس الزور والالتباس ، «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» وسلم أصحاب الوالي علاء الدين معهُ وعزل تتارقيا مدير الشرطة ببغداد. وفي سنة «٦٩٢» هـ عزم الملك الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون الالفي سلطان مصر على المسير الى العراق وتجهز وعمل السلاسل ومروساً من القنب لأجل الجسر ثم برز من القاهرة الى العاشرية في آخر هذه السنة فاقد الامير بيدر بن كتبغا عليهِ الامراء منهم حسام الدين لاجين وكتبغا ، فقتلوه يوماً وهو يتصيد وشرقت القاهرة بهذه الشربة التي ذهبت لذتها بحد هؤلاء الامراء ، ويظهر لنا ان الملك الاشرف قد استعد لهذه النهضة استعداداً عظيماً ، ففي سنة « ٦٩٢ » المذكورة وثب رجل على تقاجر امير المسلحة التتري بالعراق ، على رأس الجسر العضدي ببغداد وضربهُ بحجر عدة ضربات فقتله بها واشتد يعدو هارباً ، فمدَّ له رجل اصبهاني رجله على الجسر فسقط ، وقبض عليهِ فجعل يقول « فداء الملك الاشرف ، فداء الملك الاشرف » فسلم الى ابن تقاجر التتري فقتل به وقطع أطرافه وهو حي ثم كسر ظهره فلم يستغث ولا تأوه ثم قال لقاتله : يامخنث إنك لم تصنع شيئاً إلا وهو دون ما كان في نفسي فاصنع ما شئت فقتله وألقاه في المكان الذي قتل فيه أباه ، فقول هذا الرجل « فداء الملك الأشرف » يدل على أن الملك الأشرف صلاح الدين خليلاً أرسله الى العراق قبل جيشه ليغتال أمير المسلحة فيضطرب الأمن ويهتبل هو الفرصة للاستيلاء على بغداد

ومن ضحايا محاولات القاهرة للاستيلاء على بغداد « العدل نجم الدين يحيى بن عبدالعزيز الناسخ » فقد نسب اليه في سنة « ٦٦٩ » هـ مراسلة الملك الظاهر بيبرس في الاستيلاء على بغداد ، فحُبِس وقُرِّر فاعترف بذلك فأمر بقتله وكان على ما قيل فاضلاً ورعاً تقيًّا [1]

وفي آخر القرن الثامن للهجرة تهيأ للقاهرة أن تبسط سلطتها في بغداد وأن تضرب سكتها باسم سلطانها « برقوق بن أنس الجركسي » وتخطب له على منابرها وتعترف بسيادته، وجليّة ذلك ان سلطان العراق « أحمد بن أويس بن الشيخ حسن » التتري الجلايري من سلاطين « الشيخ حسنية » وسلطنته حدثت بين « سنة ٧٨٤ » هـ و سنة « ٨١٣ » هـ كان قد غزاه « تيمورلنك » سنة « ٧٩٥ » هـ وهو في بغداد فهرب على طريق مشهد الحسين بن علي — ع — بكربلا ثم وصل الى رحبة مالك بن طوق ثم تحوّل الى حلب ونزل الميدان فأكرمه نائبها وظالع السلطان « برقوق » بخبره فأذن له في دخول القاهرة في سنة «٧٩٦» هـ ووصل السلطان أحمد الى القاهرة في شهر ربيع الاول من السنة فتلقاه الأمراء وخرج اليه السلطان برقوق مسافة الى موضع كان فيه مصطبته ، فترجل له السلطان أحمد على بعد مئة سهم فأمر برقوق الامراء بالترجل ثم لما قرب منه قام له ونزل من المصطبة ومشى اليه فالتقاه، وأراد احمد ان يقبل يده فامتنع ، وطيب خاطره وأجلسه ممهُ على دسته ثم خلع عليه وأركبهُ صحبته الى القلعة فأنزله في بيت (طغاتمر) على بركة الفيل ونزل جميع الامراء في خدمته ثم ارسل اليه السلطان برقوق مالاً كثيراً وقماشاً ومماليك لخدمته ، قيل : ان قيمة ذلك نحو عشرة آلاف دينار ذهباً ثم حضر الموكب السلطاني فاذن له في الجلوس ثم أركبه معه الى الجيزة للصيد وانتهى الامر به الى ان تزوج السلطان برقوق بنت اخيه «دوندي سلطان» وبنى عليها قريب السفر ثم تجهز برقوق للغزو وبقي احمد في القاهرة وبعد مدة طلب إجازة التوجه الى بغداد فملّكها من تيمورلنك وكان فيها « الخواجه مسعود الخراساني » نائباً عنهُ ، فاستعد بجيش وقصد بغداد فهرب منها الخواجه مسعود المذكور ودخل السلطان احمد بغداد وضرب السكة باسم السلطان برقوق وخطب له — كما تقدم آنفاً — وبقيت بغداد في حماية القاهرة ورعايتها الى سنة «٨٠٣» هـ اذ رجع تيمور اليها وهرب السلطان احمد منها وترك فيها نائباً اسمهُ «فرج» فاستولى عليها تيمور [2] وانقطت سلطة القاهرة بدخوله

قمنا بسطناه للقارئ يظهر له استيلاءات القاهرة على بغداد ومحاولاتها لتلك وآثار هذه المحاولة ، ولطافة هذا البحث أفردنا له هذا الفصل الذي يعد مستقلاً مستوجباً للعناية والالتفات والتحبير والاثبات

بغداد مصطفى جواد

(١) هذه الاخبار الاخيرة من الحوادث الجامعة في المائة السابعة (٢) التاريخ النباتي المخطوط لعبد الله ابن فتح الله البغدادي